عبير السيد

سور الياسمين

daralmoltaqa@gmail.com

@DarMoltaqaAlmarefa

حقوق الطبع محفوظة لدار ملتقى المعرفة للنشر والتوزيع

ردمك: 978-977-85411-6-8
رقم الإيداع القانوني: 2018/21277

ملتقى المعرفة

حقوق الطبع محفوظة لدار ملتقى المعرفة للنشر والتوزيع وأي اقتباس أو إعادةطبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو إلكترونية أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

المراجعة اللغوية والإخراج الفني: فريق العمل بدار ملتقى المعرفة للنشر والتوزيع

القاهرة / مصر
جوال: 00201278821670
00201003528058

daralmoltaqa@gmail.com
@DarMoltaqaAlmarefa

إهداء

هناك من بعيد من بين أسوار الياسمين التي تتنفس في أحضان جبال فلورنس عريقة الفن والجمال..توجد ياسمينة لا شرقية ولا غربية تنثر خواطر الشجن والحنين عبير الشرق العالق بسحر الغرب.

هناك(كتبت) خواطر الياسمين لكل الغرباء الذين أتوا من كل مكان طمعا في أحضان الياسمين وكانت الآلام ورائهم تبتسم لاحضان الياسمين و لانصاف صور لأنصاف ارواح باهتة حملتها الأمواج الغاضبة بالحنين.

تخبرني المسافات الطويلة ان الطريق طويل وان الرياح التي دفعت سفينة حياتي الي شواطيء مجهولة معطرة بصراخ الغرباء المكتوم وأسوار الياسمين الملونة الشائكة..وابتسامات خافتة بين الأبيض والأسود تنثر حروفي كزهرة تنثر أوراقها والعبير انه قد آن لى ان استعيد دفة السفينة واكتشف الطريق.. وسط أحضان الياسمين وضجيج الغرباء!!

الي كل من يقرأ حروفي أهدي

خواطر

عبير فلورنس

سور الياسمين

سور الياسمين

بينما تعزف الأمطار موسيقى هادئة على أجنحة زهور الياسمين البيضاء التى تحتضن سور الحديقة الكبيرة كان المشهد غريبًا وكأنى أسمع صوت بكاء قلوب عارية. ولفيف أغصان بلا أوراق تتعانق من بعيد.

امرأة فى الخمسين من العمر، طفل فى السادسة وفتاة شابة تشبه خصلات شعرها المموج، وهى ترتفع مع الهواء البارد كرقص أمواج البحر تغازل أصداف الشاطئ.

على مقربة منهما شاب بجوار صناديق النفايات وبعصا طويلة، يعبث لإخراج ما يجده مناسبًا فيلتقطه داخل السَّبَتِ الكبير فوق دراجة عتيقة وقذرة اعتلاها الصداء.

.. يرفع رأسه بين الحين والآخر ليرمق الصغير والفتاة بنظرات هاربة من قبر لا تخبر بشيء.

هاجمتنى بعض الذكريات القديمه، كنت أظنها عديمة القيمة وسحبتنى رغمًا عنى إلى الوراء على بعد خطوات من سور الياسمين، مشهد لصراخ هستيرى ما زلت أذكر: (كان الخريف

على وشك الانتهاء، وأوراق الياسمين الصفراء الزابلة تلهو بلا قيد، طليقة فى هدوء الليل، تمزج الهواء بأصوات حشرجة هادئة، إلا أن الزجاج المحطم أحدث ضجة كبيرة وصوت صراخ المرأة، صاحَبَه صوت رجل قاسٍ يلقى ببركان غضبه الحارق.. ثم هدأت الأمور بعد الضجة الشديدة.

نسكن معًا فى نفس العمائر المختبئة بين أحضان سور الياسمين كحارس يحمى النوافذ الأمامية والخلفية من كل جانب، تُرى، هل تسمع فراشات الياسمين كل شيء يحدث هنا، هل تعرف الوجوه والقلوب أكثر منا؟ هل سمعت ما يحدث فى شقة الجيران، وعرفت بينما لا يبالى أو يجرؤ أحد أن يعرف ما يحدث لجاره؟ نعم، هى تسمع كل شيء وتداوى القلوب بعبيرها الذى توزعه على نوافذنا بعدالة كم كنت أحبها.

عاد الصوت من جديد يشق ستائر الليل المظلم إلا من عبير الياسمين، ضوضاء شديدة وصراخ الفتاة الشابة يكسر القلوب إلا أن أحدًا من السكان لم يتدخل إطلاقًا، وهكذا حال الجيران فى هذة المنطقة؟ ففى الصباح طار الخبر على أجنحة الكلمات معطرًا برائحة الياسمين.. فى الصباح تحوَّلت رائحة الياسمين إلى همس بين المسنين والشباب.. إن ابنة جارتنا الطفلة الشقراء ذات الخمسة عشر عامًا تنتظر طفلًا!! نعم تنتظر طفلًا.. ليست هذه المشكلة الحقيقية، فهو شيء قد يكون معتادًا فى الغرب.. لكن

الغريب حقًّا أنها تنتظر طفلًا من هذا الشاب القمحى ذى العيون السوداء، والذى ينتمى إلى جماعات الغجر، التى تعيش على أطراف الحى فى المنزل المهجور كساكنيه من المهاجرين.. كان زميلها فى المدرسة إلى أن أخرجته عائلته ليعمل معهم فى جمع القمامة ولممارسة نشاطهم الغريب فى التسول بملابس رثة إلى جانب أن بعضهم يتهم دائمًا بأنه يعيش على السرقة.

الفتاة تفكر فيما وصل إليه أمرها، بعد أن تنصل والدها من مسؤوليته وخرج بلا عودة هاربًا من فضيحة كبرى، فحفيده الأول ليس أوربيًّا بعيون زرقاء، وليس إيطاليًّا وليس فيورنتينيًّا، إنما من جماعات الغجر.

هدأ الأمر إلى فترة طويلة حتى نسي، إلى أن تعالى الهمس من جديد، بأن المولود هو طفل صغير يحمل عيون والده. مرَّ الزمان لا أعرف كم من خريف مرَّ، وكم من شتاء، وكم مرة جفت أشجار الياسمين ثم ازدهرت من جديد.

أفقت من شرودى على صوت الطفل الواقف على باب الحديقة يقول لوالدته بنظرات خائفة تنظر إلى الرجل الغريب الذى يعبث فى صناديق القمامة: أنا خائف من هذا الرجل الغريب، أريد أن أعود إلى الداخل.

اتجهت نظراتهم إلى الشاب بينما الجدة تسحب الطفل من يده إلى الداخل قائلة: هيا ندخل إنها تمطر، وألقت الكرة من يدها

بعيدًا فانطلق الطفل يتراقص ويقفز بين يدى جدته ووالدته اللاتى غيرن اتجاههن فجأة مسرعين إلى داخل أسوار الياسمين.

فى الصباح عيون سوداء ملتحفة بالصمت تلهث وراءهم على أجنحة الياسمين وروح هائمة تحلق بعيدًا عن جسد غريب وجد صباحًا مغطًى بأجنحة الياسمين التى جمعتها الرياح لتغطى قصة غريب ملقى بجوار صناديق النفايات.

عبير السيد- فلورنس: ١٨/ ٦/ ٢٠١٨

***

صباح الورد

وسط الزحام الشديد قادتها الجموع إلى داخل الترام، الذى لم تعتد عليه أو تحبه أبدًا، تمسكت بالعكاز المعدنى الذى يسند جسدها النحيل منذ أعوام بعد حادثة نجت منها بأعجوبة، قيل: إنها تعمدت إلقاء نفسها تحت سيارة مسرعة، أو سقطت وهى شاردة لتصحبها عاهة خفيفة كل سنوات الخريف.

تتطاير خصلات شعرها الممزوجة بأشعة شمس بيضاء، هدأت دوامة الصعود إلى الترام وتفرقت الأجساد إلى الداخل، تنشد الجلوس والراحة، بينما تمسكت هى بمكانها على الباب خوفًا من دوامة الزحام عند النزول متجاهلة نظرات عيون ترقبها.

تحرك الترام بقوة محدثًا ضجة معتادة تمايلت على أثرها، وكادت تسقط بعد أن أفلتت يدها عكازها المعدنى.. ثوانى قليلة أبعدتها عن الارتطام بالأرض، بعد أن ظنت أنها هاوية لا محالة، رأسها لم يرتطم بالأرض الصلبة، بل ارتطم بيد حنونة، يد تعرفها جيدًا.. إنها يده!

هل أنت بخير؟! سألها.

نعم.. أجابت وهى تدير رأسها لتتأكد أنها يده.

نظرة واحدة تكفى لأن ترحل عنها سنوات العمر، لتحرر شبابها السجين، الراكد فى زنزانة الغياب، تلاقت العينان بشدة، اندفع تيار يسرِى فى روحيهما، تتدفق براعم الربيع وتزهر، تتقاطع أنفاسها عن الحياة، ثم تعود من جديد فى نشوة اللقاء.

استمرت عيناها تنهل من عينيه سر الحياة.

فورًا بدأها قائلًا: أخيرًا التقينا من جديد؟

لكننا لم نفترق! أجابت.

كل يوم أعد لك قهوة وزهور الصباح.

كل يوم أرسل لك تحية وحضن المساء.

كل يوم تسبقنى روحى إلى ذراعيك.

كل يوم أحدثك بكل ما حدث حتى لفح الهواء وجهى.

ظل الشمس يتتبعنى والسيارة التى صدمتنى وأنا أبحث عنك، وألقى بروحى فى عالمك آلاف المرات.

لم ينبس بكلمة بعيدًا فى رحلة العودة إلى عينيها يتذكر.

الزغاريد تملأ المنزل. شادية تغنى: (يا دبلة الخطوبة عقبالنا كلنا) حلقتان من ذهب تطوق أصبعيهما، والسماء تمطر المشهد بأمواج من فرح، ركض أطفال العائلة وراء البالونات الملونة.

خطيبان.. ابتسمت، هى تكمل.. وسريعًا أتى يوم الزفاف، كانت الشمس قد لبست زينتها.. والقمر ينثر من دراهمه الفضية هنا وهناك، صحبتنا نجمة لامعة ظلت تحرسنا بفضول شديد، ظلت فى السماء تتلصص علينا وتشهد أدق التفاصيل، تنثر بشعاعها أنغام الحب.. إلى أن اختفت فجاءة فى ذلك اليوم الذى خرجت إلى عملك ولم تعد.

بل عادت لنا روحك بلقب شهيد.. لم تأت من يومها لزيارتى لا الشمس ولا القمر ولا حتى النجمة الفضولية.. عدت لبيت أسرتى ووحدتى التى سكنتنى.. أطلقوا علَىَّ ألقاب: المسكينة، المجنونة، الممسوسة.

فشل معى الأطباء والشيوخ والعرافات القابعات عند أركان البلدة والبعيدات عنها.

ارتجَّت عربة التّرام من جديد.. كادت تسقط مرة أخرى.

لقد وصلنا، هيا ننزل معًا... وضعت يدها فى يده وصوته الحنون يهمس، لم تغير الأيام منك شيئًا بيده الأخرى يتحسس شعرها البنى الطويل: ما زلت شابة جميلة، وأنت أكثر شبابًا.. أجابت.

وضع يده حول خصرها حملها، يدور بها فى المكان تمامًا كيوم العرس إلا أنها أكثر خفة وجمالًا.. النجمة الفضولية تطرق أذنها بحسد.

هل تزوجتِ؟....سألها.

أصرت الأسرة أن أتزوج لكنى رفضت وكنت أعيش على أمل أن تعود.. رفض عقلى أن يصدق رحيلك وما زال يرفض كنت أعرف أنك ستعود.

النجمة تتبعهم فى فضول لتسمع صوت العناق.. ذاب رأسها على صدره، تتحسس عنقه بوجهها تحتمى به تعبث أصابعها بشعره: (يالغبائى، كيف كنت بهذا الغباء؟ كيف تركتك ترحل ولم أضع رأسى على كتفيك؟).

أطبق عليها ذراعيه لتهمس الأرواح وتهمس.. تعالَى الهمس، تصاعدت نسمات الحب، تعطر الأجواء هربت النجمة حياء.

خف الضجيج على رصيف الترام وتفرق الزحام شيئًا فشيئًا.

صوت سيارة إسعاف تحمل امرأة سقطت من باب عربة الترام.

من بعيد تودع روح وردية جسد تعلوه هالات المشيب وابتسامة كبيرة على وجهها شديد البياض، بينما هى تلتصق بعنقه وتنظر فى عينيه وهى تنصت لشفتيه قائلًا: صباح الورد.

***

سيدة العشب المنثور

فى هذه اللحظة التى باعت فيها عقلها للظنون، تحالفت عليها آلامها ووسادتها ليفسدا آخر أنفاس تبقيها فى ثياب الوعي، ارتدت ملابس واسعة تكفى لتغطية ما يحمل ظهرها من أحمال، وقلبها المختنق يلفظ أنفاسه، تهز كل ما يقابلها من أشجار عارية كحياتها، هل ما زالت على قيد الحياة وأن هذه الآلام ليست ضمات القبر؟!

تصرخ فى الأعشاب الجافة المهملة التى تشبهها، تنثر بقاياها مع الرياح،

تنتحب روحها بثوب أسود كغربتها هباءً منثورًا.

نعم، إنها ما زالت حية.

المرأة الممددة على الرصيف فى انتظار المارة؛ لتتسول بعض القطع المعدنية، منذ أن أتت مهاجرة لا تمل، كجزء من بلاط الرصيف، اكتسى وجهها بلونه الرمادى كأحجار الصبر.

الأفريقى الذى يبيع النظارات المقلدة بأسعار زهيدة، الكرتونة الكبيرة التى فتح جوانبها، وعلق النظارات عليها بثقوب

صغيرة، وبعض قطع المطاط تنهك زراعَيْه، ما زال يتجول على قدميه، يتوخى الحذر بابتسامة ساخرة من رجال مكافحة الباعة الجائلين.

عامل البار، ينظف الزجاج يستعد لتلقى محبى قهوة الصباح الباكر، قدمه تأبى الحركة معه منذ أن أصيب فى حادث، لا تنقصه أبدًا الرغبة فى العمل.

على الأريكة يجلس كعادته الجار المسن، ومعه كلبه الصغير، وحيدًا منذ أن ماتت زوجته. هل يتذكر يوم التقيا ورائحة الكعك من يديها؟! هل يشتاق إلى قبلاتها عشقًا بعد أن رحلت لأول مرة بدونه؟!

الموت يبنى أعشاشه فى عقلها كطائر الرق+ يسجنها بمخالبه، أطياف النسوة اللائى أعددنها للزفاف! قيدن شعرها الشارد كعقلها بتاج زهبى اللون، أحاطوا عنقها بحبل من الزهور البيضاء، ابتسامات كريهة، حلوى وعطور ومرار.

وحيدة، قلب وكومة من الشرايين البالية، تيار حب هارب، أصبحت مثلهم.

تصفيق، دوامة ضجيج، طرقة باب بشدة، يد تتحسس وجهها، أصابع تعبث بشفتيها، تفك أزرار الحياء المتشبث ببقايا أنفاسها، تجردها من ملابسها، ستار أسود سميك، فصلها عن الحياة ثم لا شيء.

على الشاطيء، سمعت صوته القاسى، يلطمها على وجهها، معتليا المياه الباردة، وتدفعها الأمواج بضربات جسده القاسي، رحل تاركًا المجهول، وسجن بلا قيود، تصحبها ذكراه ضبابيةً، وابتسامته الساخرة.

لطمتها الأمواج من جديد، مبددة وَهْمَ الموت.

نظرات كل من رأتهم صباحًا تدفعها إلى الشاطيء لتستعيد الحياة.

الموت، غربة الطريق وروحه العنيدة يسحبانها إلى الأعماق.

جسدها الثقيل مشبع بملح البحر، يرقب الموت المتربص بين جفنيها.

أحضان البحر تخلصها من سهم الحياة المسموم، ووراءها تبتسم روحها شفافة؛ كرحيق الورد، حرة تنثر على الشاطئ عشبًا أخضر، مزينًا بعبير أرواح عاشت وراء أسوار الحياة القاتمة، ولم تستطع أبدًا تسلقها هي، حرة بعطر ربيع يكفى لحياة قادمة.

***

بيت الأصول

بينما تتخبط الطائرة الكبيرة وسط السماء الغائمة، لم تعرف هى من أين أتتها كل هذه الذكريات المغولية؛ لتهاجم بشراسة عالمها الذى يشبه بركانًا ميتًا، أو هادئًا يوشك على الانفجار. استيقظت بقوة على وحدتها اليائسة، أتتها قوة لم تعرف أنها تسكنها، فقد اعتادت الضعف صديقًا وفيًّا. هل هى أحضان جدها التى استمدت منها صمود عظامها فى أعوامها الماضية قررت العودة لاسترداد ما نهب منها؟

على الطائرة المكفوفة السابحة بين أمواج من السحب، رفضت روحها الانتظار، فهربت شوقًا تسبقها إلى هناك؛ لاحتضان البيت العتيق ترفع رأسها لأعلى؛ لرؤية صورة جدها الكبيرة المطرزة بإطار ذهبى مع صور أخرى محفورة فى الجدران، وكأنها قطع منه إلى جانب سرج، ولجام، وثياب فارس.

السيدة بلا روح على الطائرة، رائعة الحسن، يميل لون بشرتها القمحية إلى السمرة تحمل شعرًا أسود لامعًا إلى أكتافها إرث جدتها، فهى تشبهها تمامًا، وعيون مهرة عربية تسكنها من

سحر، وغموض ليل الشرق ما تم اقتسامه فيما بعد مع بريق الغرب الذى اعتلاها، تحمل على لسانها سبع لغات، يتعايشن معًا فى انسجام، وتجانس منقطع النظير لم يختلط أبدًا حرف بالآخر تذكرت كلمات لم تسمعها منذ أن كانت طفلة، بيت الأصول، بيت الأكابر، ابتسمت فخرًا، فهكذا يسمى بيت جدها، وهكذا تقول حروف اللغة العربية التى بدت ذابلة على شفتيها، فأتت مخارجها بنعومة فيروز وهى تغني: (ستى يا ستى ستى... اشتقت لك يا ستى.. ستى شو باقولك يا ستى).

قطع غناءها صوت قائد الطائرة بكلمات إنجليزية قصيرة، وقوة وهمية يعلن تعرضهم لمطبَّات هوائية شديدة الخطورة، وضرورة ربط الأحزمة. رنين مكالمة هاتفية قديمة عصفت بها الذكرى كانت المكالمة من أختها تحدثها من مرقصها الفاخر فى بلدة ما، تخبرها أن غرباء قد وضعوا أيديهم على البيت الذى تسكنه الأشباح، واللصوص، ويباع أثمن ما فيه فى مزاد حقير، البيت، البيت، النزاعات، الأمر خطير!! هل ما زال هناك أمل لإنقاذ البيت؟

الرحلة طويلة شاقة، وروحها التى سبقتها عارية من زخرف الحياة إلى البيت تطوف حوله، فى حيرة لا تعرف، إن كان طواف القدوم أم الوداع.

شريط من الذكريات، يعبر أمام عينيها الجامدتين ندمًا، ترقد

روحها أمام الباب الكبير المنقوش بتراتيل السلام الذى قضيت دون اقتحامه أرواحًا، ما زال واقفًا كانت تترك دراجتها وراءه.

تتسلل روحها الفناء الواسع المطرز بشرايين من الفن العثماني، والألوان الأندلسية الفيروزية والأزرق، تزين ساحة الصلاة الواسعة بطراز متنوع بين العباسي، والأموي، وخطوط غرزت الآيات القرآنية على الأسقف، وفوق الأعمدة {إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ} {وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا}؛ أما الساحات: فامتزاج موزايكو متنوع من الفن الفرعونى والنقوش القبطية، ونقوش صنعاء القديمة، أحجار بيترا تضفى بهاء وهيبة على البيت الثقافات المختلفة، تمتزج مع عطور الأقصى الفواحة إلى جانب أشجار الزيتون والآمان والخوف تزين الحدائق الواسعة. كم كان رائعًا بيت جدي، كم كان مهيبًا قويًّا عطوفًا. ما زالت قبلته الرائعة، وأحضان حوائطه نبع القوة.. فى المكتبة الكبيرة التى تسكنها روح جدها لم يكن يفارقها كثيرًا، وأعاد إليها الحياة مرات، ومرات رغم سرقتها.. سقطت روحها مغشيًّا عليها لفترة، فلقد أيقنت أنه لم يعد مما تذكر شيئًا.. أكوام من القمامة ترتفع؛ لتخفى نقوش الجدران.. بيع كل شيء بدراهم معدودة.. أغصان جافة كأسلاك شائكة على أجساد زهور القرنفل، والياسمين القتلى فى الساحات.. تبدد الأمل الذى ازدهر منذ فترة يهزها بقوة هل سأستطيع استعادة البيت و ترميمه.

كانت يد المضيفة تهزها بقوة؛ لتعطيها كوبًا من الماء، وقد أزعجها الإرهاق، والضعف الشديد الذى يبدو على السيدة ذات الوجه الخريفى والتى تتحدث طوال الوقت إلى نفسها عن البيت.. هل أنت بخير؟

سألتها المضيفة:

نعم.. كنت فقط فى غفلة طويلة.

والآن على أن أكمل الطواف.

سحبتْ ألبوم صور عتيقًا من حقيبتها، وأخرجت بعض القصاصات والجرائد الصفراء.. كانت صور البيت وقد بهتت ألوانه صامدًا يتحدى نكران الأهل وغفلة اللاهين يقطع اللصوص من جسده شيئًا فشيئًا.. وقد قطعوه إلى غرف صغيرة بأسلاك لا يجترئ أحد على عبورها.. منعت الأسلاك روحها من أن تعبر إلى غرفة والدتها.

أما الصورة الأخيرة كانت أشد قسوة كسكين مسموم طعن الأمل فى صدر روحها الهائمة طوافًا حول البيت.. كانت حوائط مهدمة، تبول عليها الكلاب مع اللصوص الراقصة بينما تحلق فوقها طيور جارحة؛ لالتقاط بقايا جثث هامدة تسعى.

غلاف أسود من الندم يلف عقلها فى دوامات. تغرق، ثم تفيق فلا الموت، ولا الحياة، وقد أبت الذكرى المغولية إلا أن تلطمها بالمشهد الأخير للجد، وهو يخرج ملفوفًا بعباءته البيضاء

التى يخصصها للصلاة محمولًا على الأعناق، تودعه عيون ماكرة تقهقه بالبكاء، انتحبت كما لو كانت ترى الصورة لأول مرة.. روحها تسكب قصائد الدمع، والرثاء حول البيت، وجهها يتغير إلى فراغ، وعيون بيضاء تشبه الموت. نظرت إلى ساعتها؛ لترى كم تبقى من الزمن؟ كانت ساعة يدها متوقفة خارج الزمان منذ أن أهدتها لها والدتها فى حفل حصولها على الدكتوراه فى التاريخ، والحضارة لم تتوقف يومًا، صنعتها يد خبير وطعمتها بفصوص صغيرة من الذهب الأبيض، ولها زجاج أخضر من الزمرد العتيق.. إلا أنها تعمدت تجاهل دقاتها المنهكة وتحذيراتها بالتوقف.

درجة الحرارة على الطائرة تلهب الوجوه عطشًا، وعرقًا يتناثر.. أزيز قاتل كطنين آلاف الدبابير يثقب الآذان، نقيق ضفادع سامة.. عيون فارغة إلا من اللا شيء موجات من الذكرى.. طعنات من ندم تدق عظامها، وعود تهديدات قهقهات خبيثة، أصوات مختلطة ميزت منها صوت ضعيف لقائد الطائرة، يستغيث معلنًا ضياع الطائرة التى مالت بشكل حاد وسط المجرات.

***

الإعلان

بلهفة شديدة نظرت إلى الإعلان المكتوب بخط صغير فى جانب الجريدة،

آلام شديدة فى قدميها بعدما جابت العديد من الشوارع والمؤسسات لتقديم طلب وظيفة إلا أن الأرض ضاقت بما رحبت يبدو أن الأمر سيطول.

جلست على جانب الرصيف تحت شجرة فارهة تحتمى بظلها من آلام الفكر التى لا تكاد تترك لها الأنفاس فهى بحاجة إلى العمل؛ أخوها الأصغر بحاجة إلى مصاريف المدرسة، وقد أنذرتها المدرسة الأسبوع الماضي، وأمس عاد أخوها باكيًا فقد نادت مديرة المدرسة أسماء التلاميذ ممن لم يدفعوا مصاريف الدراسة، وأنذرتهم أمام الجميع فى واقعة تكفى ليتذكرونها مدى الحياة، تسللت الدموع إلى عينيها بصعوبة، رأت العربة الصغيرة، وطلبت من البائع الشاب أن يبيعها واحدًا من الذرة المشوى بينما بآخر ما تملك فهى لم تأكل طوال اليوم.

أتاها صوت بعض الباعة الجائلين، وأحدهم يتحدث بصوت عالٍ: فرجك قريب يارب، تذكرت وجه أمها التى تنتظر فى المنزل ودعواتها بالفرج.

وضع الفتى الذرة المشوية على ورقة جريدة حتى لا تحرق يدها، بصعوبة رأت الإعلان، إنه يطلب سكرتيرة.. لا تكاد تصدق.. تاريخ اليوم.. التقطت العنوان بسرعة وضعت الذرة فى جانب حقيبتها وأسرعت، كان العنوان قريبًا.

أخذت تسأل هنا وهناك حتى وصلت أخيرًا.. ماذا.. لم تكن أبدًا لتتذكر ماذا ترتدي؟ إنه قميص أزرق اللون وبنطال أسود، بينما شعرها البسيط ملفوف برابطة شعر صغيرة.

فوجئت بهذا الكم من الشابات وصدمتها رائحه العطور التى تصل إلى مدخل العمارة.. خبأت الذرة المشوية فى جانب الحقيبة.. أخرجت ملف الأوراق.. أخذت تعزى نفسها وتمنيها بالحصول على الوظيفة.. نظرت نظرة فى شهادتها الجامعية، كان تقديرها (امتياز) ومن الأوائل دائمًا، لوت رأسها بعيدًا فكلما تذكرت أن ابنة أحد الأساتذة قد أخذت مكانها فى التعيين الجامعى طردت ألم التفوق بعيدًا وتمنت لو لم تكن متفوقه.

نظر إليها الرجل الجالس على المكتب، وقد أحاطته الفتيات الحسناوات كالدمى، شعرت بغربة كبيرة بينهم، وربما شلالات من الاستهزاء والسخرية تنهمر من أعينهم.

سألت عن التواليت لتعدل من ملابسها، غسلت بعض الدموع الحارة المنهمرة كالسيل.

عادت إلى مكانها لتكمل قراءة ورقة الجريدة، فهى لم تعرف شيئًا عن العمل، لم تقرأ إلا العنوان: مساعدة، حسنة المظهر، تعرف عدة لغات، مطيعة، يمكنها عمل مساج أو تدليك!!!

تسمرت حواسها، لم تفهم أى شيء، نظرات الرفض والسخرية ما زالت تطاردها، مر الوقت بطيئًا إلى أن وجدت نفسها وحيدة فى الغرفة مع أوراق تفوقها ملابسها البسيطة، والذرة المشوية: ما هذا الصمت؟! أين ذهبت فتيات الدمى؟! فكل واحدة منهن أجمل من الأخرى، وقد يقع المدير فى حيرة الاختيار، قطعًا لقد ضللت الطريق إلى هنا، انحدرت دمعة ساخنة جديدة ترجوها أن تنتظر قليلًا من أجل أخيها، من أجل والدتها !!

خرج رجل ثمين من الغرفة ملابسه أنيقة جدًّا، وكان ينفخ سيجارة بعصبية شديدة، بدا أنه قد ملَّ هذا النوع من السجائر، ولم تعد ترضى حاجته إلى الكافين، وراءه كان رجل آخر بدا أنه مساعده، ما هذه الرائحة؟! كانت رائحة الذرة المشوية تملأ المكان، وقد تسللت إلى شراينه، نظر إلى الفتاة وأقسمت نظراته أنه لم يكن ليراها لولا الرائحة التى أثارت شهيته، ابتسم ابتسامة ماكرة، بينما الفتاة تنسحب من حيث أتت، كان الرجل الآخر يلهث

وراءها على مدخل العمارة الفخمة يا آنسة..يا آنسة.. اتفضلى علشان تمضى العقد!!

أسرعت تصعد من جديد وهى تمضى العقد بيد مرتعشة، رأت الذرة المشوية وقد التهمها أحدهم، ثم قذف بها إلى سلة المهملات.

***

خواطر أنثى مهاجرة

كنت فصلا من فصول حياتي المبعثرة بين شتاء وشتاء
يأتي خريف.. يدفعه جليد.. وشتاء يعود من جديد
بلا زهور الليللا أو عناقيد الياسمين البري !!
سحرتني أناشيد الحمائم في جنة
مختبئة في صدرك الحجري
رأيت ربيعا يتفجر بينابيع شعر كالبركان
يعزف لقلب أنثى ألوان قوس قزح الفتان
وكيوبيد يحجر قلوب العذارى.
بأسهم من أشعتك الفضية يا قمرا إنسانا
والآن رأيت أحجارك في كل مكان.
أراك كل الفصول التي لا أعرفها
خبيء من أحجار قلبك وأغلق أبواب جنتك
ضع رأسك علي صدري.. أنزف دموع كل أنثى أحبتك
أما أنا فلا أحب البكاء..أنا يا قمري.

ولدت... وكل الفصول في حياتي شتاء !!
لن أصبح حجرا في جنتك المزعومة
ابكا ربيعك الضائع حتي تنصهر أحجارك.
اغتسل وتوضأ من نهر حب عذري ولتغفر لك كل النساء!!
سيكتب التاريخ عن غروب قمر ضاع بين الأكوان
وامراة لا كونية تحمل علي صدرها
قلبا يحترق كبركان صامت
لا تقل أحبك فقد رحل الزمان والمكان.

* * *

زغاريد البحر

لم تبالى بعزف الأمطار على شالها الأبيض، أو تصفيق الأمواج على رقص الأصداف الصغيرة والقواقع، كانت جالسة على الرمال فى الخط الفاصل بين الماء واليابسة، توقد شموعًا صغيرة ما تلبث أن تطفئ نورها الرياحُ المنداة بملح البحر، تذكرت يوم مولده، وعلى عادتهم أوقدت الشموع المثبتة فى صينية صغيرة مليئة بالماء رمز الحياة التى تتدفق، وما أن تنتهي حتى تولد بالماء من جديد، كل شمعة تحمل اسم، انطفأت كل الشموع إلا شمعته وسط زغاريد الميلاد ومخاض الروح، هو الباسم الصغير، باسم هو الاسم الذى اختارته له الشمعة الغارقة فى الماء، لا يهدأ إلا على صدرها، بينما تغلق هى أزرعتها عليه، وتضمه بشدة، تضم السيدة المسنة ذات الشعر الأبيض يديها على بعضهم، تحتضن روحه التى ظلَّت معه، بينما رحل جسده بعيدًا عنها إلى هناك فى رحلة البحث عن عمل.

ضاقت به الحياة، وعدها أكثر من مرة أن يجعلها ترتاح من عملها الشاق فى السوق، لكنه لم يفى بوعده أبدًا.

هناك على القارب المتهالك كان شاردًا تضرب الريح الباردة جسده فيزداد التصاقًا بالأجساد المتراصة مغمضًا عينه يحاول أن يحتمى بين ذراعى الأمل من الموج الأزرق القاسى الوجه.

يكشف عن مخالبه المطعمة بالموت شيئًا فشيئًا.

تذكر حضن الوداع؛ والدته أم باسم، هرب من أمام دموعها، بينما تواسيها امرأة أخرى.

إن كل الشباب رحلوا، وإن عليه إن كان يريد حقًّا أن يجعلها ترتاح من مشقة العمل أن يهاجر.

هى تجلس على الشاطئ، تتذكر آخر كلماته، قريبًا أرسل لك أن تلحقى بى يا أم باسم!

تضحك دون سعادة.

جزء من روحها يرحل عنها.

يبتلعه البحر المكتظ بغيامات من الدمع.

يراها من بعيد وتتلاشى صورتها شيئًا فشيئًا.

تعالت الأمواج الغاضبة جلست هى على الشاطئ الذى تعرفة جيدًا، لم تعطه الأمان يومًا!! تعرفه جيدًا... نعم... صرخت فى وجهه، وقد عرفت نواياه التى تفهمها جيدًا، صرخت محذرة.. إياك أن تلمس ابني.

أخذت تلقيه بصخور محطمة على الشاطئ فيزداد غضبًا على غضب بينما يزداد نحيبها.

هدأت قليلًا لتسمع موجاته أرجوك.

لا أملك غيره.

هو كل ما أملك..هو حياتي.

نظرت إلى الموج الصامت.

إلا أنه لم يكن ليضعف أمام دموع امرأة.

أغلق البحر أبوابه وهو يزأر وتهتز دواماته من القاع إلى أعلى.

على ظهر القارب الصغير.

يشعر هو بأنفاسها تلاحقه كلما غفت روحه توقظه إلا يستسلم للموت.

كيف يا أمى كيف؟!

الموت يحيط بنا يلتهم الأرواح قبل الأجساد.

تبكى تستعطف البحر أن يأخذ جسدها هى وأن يترك له باب أمل.

الموج لا يسمع، يعلو زئيره، حيتان كبيرة تتجمع فى انتظار الصيد.

ربط قميصه على عينيه حتى لا يرى الموت بائت محاولاته، بالفشل

الموج المبلغ بالموت الأحمر يفتح عينيه يغطى وجهه.. يأخذ روحه.. كل شيء يصرخ.. بدأ يشم رائحة أجساد.

هى على الشاطيء ما زالت جالسة تعانق ابتسامته معاتبة البحر الخائن.. يتعلق فى ثوبها الأبيض.. حملته على كتفها تهدهد روحه.. ملأت دموعها البحر مرارًا، لم تنتظر أن تزف إليها الأمواج الخبر، أو أن تلفظ جسده إلى الشاطئ، بل أسرعت تبحث عنه بين أحضانها المظلمة.

***

الطفلة التي ولدت بحلم الحياة

تدور حول نفسها كعقرب الساعة بينما تسمع تساقط أوراق الأشجار علي سطح البحيرة القريب منها توشوش إحداهما الأخري عن الفتاة التي ترقص رقصة الموت.

تعكس مياه النهر صورة فتاة صغيرة مختبئة ترقص في جانب الغرفة بعيدا عن العيون خاصة عيون زوجة ابيها القاسية تتفجر وحشية.

عينا زوجة ابيها ذات المائل للبياض تفزع رقصاتها الرقيقة فتنتفض وحيدة وراء باب الغرفة كطائر مذبوح يتناثر ريشة هنا وهناك.

صورة اخرى لزراعي زوجة ابيها الشبيهتان بأقدام عنزة حمقاء حول صدر الاب المنتفخ لتقنعه أن الوقت قد تأخر كثيرا وان عليه أن يوافق علي هذا العريس هدية السماء والأرض له لكي لا يكون لابنته حظا من العنوسة وربما العار..

مع همسات خفيفة عن حافظة نقود ثمينة الأرداف وتصنعت الي حد ما بكاء السعادة بحظ الطفلة المسكينة..وانصرفت بهدؤ بعد أن ألقت عليها

نظرات محمومة تكسر سكون الليل تتجه مباشرة الي صدر الفتاة مصدر الشفقة والخوف والقلق والعار

انتحبت الفتاة الطفلة كان عليها البكاء إلا أنها لم تبكي بل ابتسامة عريضة ولدت ملتحفة بالكبرياء على شفتي طفلة عنيدة..

علي سطح البحيرة امتلأت عيون الفتاة بالأمل وهي ترقص كفراشة تتعلق بخيوط قمر فضي حزين يناديها من السماء.

أجنحة طائر صغير تضرب الخوف لتطرده بعيدا.. طفا جلباب ازرق كالح اللون كحياتها البائسة وازداد انتفاخا..بدا كجثث الموتى الغارقين في مستنقعات البلدة، هروب طويل داخل النفس،أنفاس تتلاحق نحو الخلاص، عكس القمر وجة طفلة صغيرة تبتسم على وجه الماء

ترقب الصعود انها عيون طفلة قررت النجاة بينما عيون القمر علي الطريق الطويل بلا نهاية يخبرها أن كل المسافات تؤدي إلي النهاية ها قد وصلت.

***

عزف الشيكالا

دقات قلبى العنيدة لا تتوقف منذ أن دخلت باب الحديقة، تهرب أنفاسى ثقيلة بطيئة إلى أعماقى، تدفعها دقات قلبى التى تعزف مع الشيكالا (حشرة صرصار الحقل) الماكرة بمساعدة مجموعة من الحمائم التى لا تقدر حتى على تحريك أجنحتها بسبب الحر الشديد.

ابحث عن مقعد تحت شجرة تحمينى من أشعة الشمس، وأفرغ عليه ذكريات هاجمتنى أنها حديقة سنتا أمبروجو القديمة وراء كل شجرة ضحكات أطفالى وهم صغار، فكانت حديقتهم المفضلة للعب فى طريق العودة من المدرسة القريبة، أتت ضحكاتهم وجوههم لتلطف قليلًا من الرهبة فكل المقاعد تسكنها الأرواح.

تلاحقت أنفاسى وأنا أعبر ساترًا وهميًّا أسود اللون يطبق على الحياة، وكأنه يرفض أن أعود إلى الباب، أخرجت زجاجة الماء الساخنة بفعل الحر الشديد، وليس من البسكويت، فى محاولة منى أن استعيد قوتي.

ظلال سمراء بملابس ملونة.. وجوه صامتة لا تنبس بحرف.. همست روح شريرة داخلى كيف تجرؤين على الدخول وسط جثث السكارى؟

ولما أخاف أجابت روحى أن هذه الهياكل السمراء ليست إلا.. ليست إلا... تاهت منِّى الكلمات لا أعرف.

الشمس تدق رأسى بعيون زوجة الأب، تمطر بدفئها الوقح طفلًا يتيمًا بينما

أتامل ما حولى ظلال ملقاة حول الأسوار وتحت الأشجار.. توجهت لأول مقعد قابلنى كان الوحيد الفارغ.

التقطت أذنى غطيط نوم يعزف مع الشيكالا المجنونة بصراخ الصيف.

أصاب الكسل كل شيء حتى ساعة يدى، نظرات حمامة حمقاء كريهة، التقطت رائحة البسكويت فى جيب حقيبتى فأخذت تجر قدميها دون أن تحرك أجنحتها مباشرة إلى حقيبتى ونظرات ثابتة مخيفة تهل من مقابر العيون، بدت تهدل بصوت تهديد عالٍ أو الطعام+ أو إيقاظ الأشباح وبدأ سرب الكسالى كله يهدل مع صوت الشيكالا فتفتحت عيون شديدة البياض زجاجية البصر لا ترى شيئًا.

ألقيت باكو الباسكوت من يدى أجرُّ أقدامى خارج الأسوار هربًا. وما أن اقتحمت الساتر الأسود المطبق على الحديقة حتى وجدت سيارة الشرطة كيف لم أسمع ضجيجها؟

أعدت النظر للوراء ورجال الشرطة يجمعون الأجساد السمراء فجاءة، تعالت أصوات الأذان من هواتفهم، مختلطة بصوت عوانس الحى يتهامسن أن مركبًا غارقة ألقت بقاياها فى أسوار المدينة، جمعت بقايا روحى المهشمة، وقد احترقت بوشم عيونهم الراحلة، وأنا أسرع إلى الحافلة، تعالت دقات ساعتى، وقد عادت إلى الحياة لتعلن فوات الموعد. وقد نسيت كل شيء عنه.

***

غيبوبة الميلاد

بعيون تمطر أحجارًا؛ أمسكت بطرف ثوبها الأسود الطويل، تجره وراءها على وجه الأرض القاسية، عساه يمحو آثار أعوام من الألم مع آثار أقدامها المحفورة على رمال البحر الملتهبة، المبللة بعرق ديدان الأرض، لا تدرى إلى أين هى فقط ترغب أن تمحو من السنين سوء الحظ، هى فقط تريد الحياة. قابلتها مسؤولة فى فرق الإنقاذ بعد أن أعطتها غطاء لتنزع ثوبها المهلهل الذى أكلت أشعة الشمس لونه الأسود، وسكنت ذرات الملح المريرة أنسجته.

سألتها ما اسمك؟

أنا اسمى.. لا أعرف؟

لا تذكرين اسمك؟ معك أوراق هوية؟

لا أملك شيئًا، ابتلع البحر الهائج كل آثار الماضى، وآلام الولادة من رحم البحر صهرت كل شيء أذكره، أنا ميلاد جديد !

تذكرى من أين أتيت؟ من وضعك داخل هذا البرميل، الذى لولاه لكنتِ طعامًا للأسماك!

برميل، لا أذكر.. لا بل هو رحم أمي، رحم البحر.

أذكر أنها أنا.. أنا التى أعرفنى منذ أن كان عمرى ٧ سنوات.. أحارب طوال عمرى لأصل إلى أنا.. لأصل إلى نفسى لأصاحبها لأحبها لأعرفها، لكن كيف؟ كيف وقد قص الظلم أجنحتى وألقانى لأسيرَ فى متاهات دود الأرض؟

وقد علمنى الألم أن اسمى ليس بالشيء المهم. كنت أرى جارتنا تقص منقار الطيور الصغيرة بالمقص، وكانت تقول حتى لا تعض وتكسر أجنحة الحمائم الصغيرة حتى لا تهرب بعيدًا. وفى عمر ١٠ سنوات بدأ لى مع أول نظرات من عيون من حولى أن أجنحتى التى بدت تتحرك ببطء سوف تكسر قريبًا، وسيقص منقارى وقد كان، لقد كسروا أجنحتى مرات ومرات.

عندما رأت أمى ابنَ الجيران، وهو ينظر من وراء النافذة الشبه المكسورة، فقرروا ألا أفتح بابًا أو شباكًا.. لا مدرسة بعد اليوم بل العيش فى صمت المنزل، وراء ستائر من جدران سوداء، وستائر من الجهل وكأنى فى غيبوبة من الزمن، إلى أن أتت امرأة فظة تتحدث كثيرًا، لها أنف معقوف، يميل إلى ناحية ما من وجهها الذى بدأ لى كالحًا سخيفًا، تسكن بين تلافيفه ضحكات مقززة ونظرات عفنة تبصق على وجههى بكلماتها.. وهى تعاين شعرى الأسود المجعد وتضع وجهى بين كفيها، قائلة: يا جمال العروس.. بدر مُنوّر.

لم أحتمل أصابعها التى غرست أظفارها فى كتفى تستوقفني. نثرت زراعها بعيدًا وأنا أزيح جسدى بعيدًا عنها، إنها

الخاطبة كما تسميها نساء العائلة، وقد جاءت ببشرى إزاحة الهم الثقيل من على كتف أبواى، فأنا واحدة من ست بنات وثلاثة أخوة ذكور، رحبت بها أمى كثيرًا.. بينما أنا فى شك من الأمر.

وقد كان. عاد كل شيء لزمن بعيد، عاد كل شيء يهمس من جديد فى أذن العروسة الصغيرة!!

رجل لا أعرفه.. لا أعرف موطنه، لكن بدا لى كثيرًا أنه يشبه هؤلاء السادة الغرباء أصحاب المناجم القابعة تحت جبال القرية.. الجميع يعمل؛ حيث خبأت الأرض فى باطنها من الكنوز ما صنع منهم سادة، تحمله لهم جثث من ديدان الأرض كسرت مناقيرها، انتبهت من جديد، حفيف الهمسات تتزايد فى أذنها، عروس صغيرة قررت أن تستعمل أجنحتها المكسورة.

لم يعلمنى أحد الطيران، لكنى هربت، هربت فى ليلة حارة، كان الحر شديدًا جدًّا.. وطنين الذباب يلهب الأعصاب الملتهبة.. يؤرق كل نائم ومستيقظ.

عاد هو من الخارج، أكل من جسدى ما شاء، بعد أن التهم الغذاء، وترك الأوانى التى امتلأت بالجوعى من ذباب جائع.

نظرت إلى شعرى المبعثر غضبًا.. إلى آثار أظفار على صدرى، كانت ظاهرة رغم جلدى الملون بالأسود.. قررت أن أخلع عنى السواد.. نظرت إليه محاولًا أن أتذكر كيف كان اسمه، ولم أعرف.. تطوف برأسى مشاهد رجل بلا ملامح.

نزعت ستار الخوف عن قلبى.. فتحت باب الأمل وهربت.

لم يقابلنى أحد فى الطريق.. حر شديد.. اقتربت من البحر.. كان صديقى.. كان يحسن الاستماع إلى ويُهدينى بعض نسمات الأمل، وأنا اركض على رماله يسمع ثرثرتى منذ أن كنت طفلة وأطلق لأجنحتى العنان فتحلق على أمواجه، والأطفال يضحكون، وقد لقبونى بعروس البحر. تسللت إلى المركب الكبيرة بحذر، وأنا أحاول أن اختبئ شيئًا فشيئًا وراء برميل فارغ كبير، ثم تسلقته وقد ساعدتنى موجاته العالية، حملتنى لألقى جسدى النحيل فيه بخفة، غبت عن الحياة لا أعرف كم مرة من الزمن، فقد كان الظلام يغطى كل شيء، وثوبى الأسود الطويل ورائى شيئًا فشيئًا، يمسح ما تبقى من ذاكرتى ببطء كلَّ شيء.

***

تذكرة عودة

لم تستطع أن ترفع بصرها وقلبها عنه وسؤال غريب يطرق عقلها الواعي..ايستحق كل هذا العمر الذى يسحب ذاتي للتحليق بين عينيه..

تجلس على دكة عتيقة بلون البندق الداكن ينساب عليها شعر احمر قاتم كنبيز معتق من آلاف السنين.

رفضت مكالمة هاتفية تاتيها من مكتبها الفخم.

أتاها الجواب..نعم.نعم يستحق

يستحق قراءة كل كتب الشعر..

وسماع كل اغنيات وأشعار الحب..

فتاة جالسة وحيدة علي مقعد عتيق في محطة قطار غائبة تسبح في ذكريات ماضي وحاضر..

وضعت يدها علي رأسها تتحسس الجرح القديم بين خصلات شعرها،حفرة صغيرة خالية من الشعر.. بيدها تضغط الألم..وتمسح بين الحين والاخر دماء الشوق،الشجن تتفجرمن جديد..ضجة وأصوات..ميدان كبير،صرخات عيش،حرية، عدالة اجتماعية..

جمع من الشباب يحمل جثث.. ازرع تلتف بها لتحتضنها.. إنه يموت، ينزف !

يد تكتم بركان الدماء المتفجر بين شعرها القرمزي بلون النبيذ.

غيبوبة..صمت !!

فراق ثم افتراق الي العالم البعيد.

يقال انه مات موت حلم الخلاص و كتب لها ولكل شباب الجيل يوصيهم بالرحيل !.

هنا علي المقعد البعيد عن انفاسة يمليء الصمت سماء ماطرة بلا شمس بلا نجوم بلا قمر بلا لمسات حنان و أحضان الأمان.

تنظر في عينية كثيرا، قطعا ستمحي احضانة إثر الهروب وستغسل رائحة طينة بقايا انهار الحزن الغريب.

لا للهروب فتحت حقيبة يدها واخرجت التليفون..طلبت تذكرة عودة

الي الوطن الذي يسكنها

***

بائعة المرايا

أجبرتها الرياح القوية الهائلة تحت ثقل قطع صغيرة من الثلج، تقذف بها عيون المارة أن تجمع بضاعتها من على الرصيف لتختبئ فى أحد الممرات.

الثلوج مع شجار قطع الثلج مع قطرات الماء يُثِرْنَ لديها خوفًا وشجونًا أكثر من كل يوم، كان البرد شديدًا، لم تشعر كم مضى من الوقت إلا أن الشمس لم تكن عازمة على ألا تخرج لتهب بعضًا من الحياة إلى هذه الأجساد المكومة أسفل الممر.

كانت يدها المتجمدة أضعف من أن ترفع إحدى مراياها التى تبيعها لزبائنها الفقراء، وقد دفعها الفضول أن تتعرف على ما بداخلها.

ارتفعت إحدى المرايا لتقف أمامها فجاءة، كان بداخلها طفلة صغيرة، تلهو أمام منزل كبير، تحيطه الزهور من كل جانب من هذه الطفلة، لم تتعرف عليها بعد، وضعتها وهى ترفع مرآة أخرى، خرجت منها فتاة رائعة الجمال ترقص رقصة الحب، بينما

يتعالى التصفيق، وضعت المرآة بصعوبة ورفعت أخرى، كانت سوداء قاتمة لا يوجد بها شيء غير الوحدة والهجرة.

رفعت كل المرايا ولم تجد إلا شيئًا فى المرآة قبل الأخيرة، رأت وجه امرأة مسنة صغيرة الحجم، جالسة فى سكون الصمت، وأمامها مجموعة من المرايا الفارغة حتى من المال.

رفعت مرآتها الأخيرة؛ لترى فتاة جميلة ترقص رقصة الحياة، وبجوارها جسدًا قديمًا غريبًا مكومًا، تتناثر حوله قطع من المرايا المهشمة، استمرت فى الرقص على أشلاء مراياها الفارغة، ترقص بين عالمين لا يصل بينهما سلك تليفون أو مكتب بريد أو رحلة ما، تقطعها حشرة صغيرة، لم تهتم لقطع الزجاج الصغيرة، الملوث بدماء حياتها الراحلة تعلق أقدامها، وصوت رجل شرطة يتصل... جسد امرأة فى جانب الرصيف... نظر فى وجهها الأسمر، تبدو امرأة مهاجرة.

***

الموت خارج الإطار

وهل الصور المثبتة على الجدار تتنفس؟ طرق هذا السؤال رأسة بشدة وهو يثقب بنظارته الطبية عينان سماويتان تهافت عليه من داخل الإطار الزجاجى المطرز إطارة بنقوش من ذهب ينقل عبق سنين طويلة غير مرتبه.

ازداد اقترابًا من زجاج الإطار. تمادى فى التقاط حركات السكون من عينيها ليتاكد أنها ما زالت حية، اقترب أكثر تعرف على سماء بلدته رغم الغيوم السوداء، قريته، بيته وأشجار كثيرة من الصبار نَمَت فى غفلة من الزمان.

أين السكان؟ تساءل: هل هم نيام؟! دبيب من الرعب يكفى لأن يرتعد قلبه وتتعالى دقاته عندما أجابته العينان السماويتان المرسومتان يمين الإطار كملاك حارس: هل ما زالت تبحث كل صباح عن نظاراتك الطبية بعد أن خفق نور عينيك وحل الظلام؟ سألته.

– نعم، أجاب.

هل ما زالت الحياة تعبث بحاضرك كما عبثت بماضيك؟ شريط من الفكر يعصف برأسه؟

– نعم.

– لماذا عدت؟

– أحبك!! أجاب.

– قتلنى الشوق إليك.

– منذ أن ولدت وأنا أدور فى الشريط الفارغ إلا من الحرمان.

عابسة أجابت العينان.

أجنحة فوضى عارمة تغرقنى لم أعد أعشق التفاصيل لم أعد أعرف من الملامح إلا القليل، فهل أنت ممن بقى من أحبة النيل؟

فتح زجاج الإطار بقوة هائلة تسحبه إلى الداخل، احتضنته رائحة غريبة تغرق المكان لم يتعرف عليها إلا بعد أن داست أقدامه أكوامًا من بقايا إنسان هناك مرسومة بألوان باهتة أسفل الإطار.. أصوات عالية... ضجيج، قهقهات كثيرة لكوارث كان يحجبها عنه الزجاج الكاتم للصوت.. لا تسمع خارج الإطار.

بقايا أشباح تتحرك تنفث رائحة الموت الصامت فى وجهه أعشاب جافة فى كل مكان.

انتبه إلى عينيها، وقد اشتد بياضها غضبًا، سحبته وراءها تبحث عن ملازم آمن.. إلى أين؟ إلى المعبد الكبير؛ حيث صمتت أجراس الكنائس ويرتفع خافتًا آذانٌ ضعيف طاردته الأشباح هناك.. طرق أبواب الأمان المُغيَّب!! لا مجيب، الموت يحلق فى عينيها.

حبيبتى.... ناداها.

أخبرينى أنك بخير، وأنى سأكون بأمان بين إطارك، عيناك الملئيه بالنور لازت بالصمت من جديد.

لم تكونى يومًا بهذا الضعف؟

خارج الإطار كنت أراك عفية سماوية العينين.

ارتطمت أقدامه بالجثث وبقايا الرفات من جديد، وتعالت قهقهات الكوارث، أنت فى الإطار أيه المتمرد حبًّا فى الحياة.. هناك فى قاع البحيرة النصف جافة كانت مركب صغيرة معبأة حتى الغثيان، حملته عيناها الحبيبتان وبأنفاس التقطتها فى غيبوبة الزمان دفعت بمركبه البائسة خارج الإطار فى بحور الغربة البعيدة ليعود إلى حيث كان بينما قهقهات الكوارث تتعالى وتتعالى وتفرّ عيونها الهاربة فى السماء فقد منعت حتى حق البكاء.

***

السيدة ذات الوجه الخريفي

بينما تتخبط الطائرة الكبيرة وسط السماء الغائمة، لم تعرف هي من أين أتتها كل هذه الذكريات المغولية؛ لتهاجم بشراسة عالمها الذي يشبه بركان ميت، أو هادئ يوشك على الانفجار. استيقظت بقوة على وحدتها اليائسة.. أتتها قوة لم تعرف أنها تسكنها؟فقد اعتادت الضعف صديقا وفيا.هل هي أحضان جدها التي استمدت منها صمود عظامها في أعوامها الماضية؟ قررت العودة لاسترداد ما نهب منها

على الطائرة المكفوفة السابحة بين أمواج من السحب. رفضت روحها الانتظار، فهربت شوقا تسبقها إلى هناك؛ لاحتضان البيت العتيق ترفع رأسها لأعلى؛ لرؤية صورة جدها الكبيرة المطرزة بإطار ذهبي مع صور أخرى محفورة في الجدران وكأنها قطع منه إلى جانب سرج،لجام، وثياب فارس

السيدة بلا روح علي الطائرة، رائعة الحسن،يميل لون بشرتها القمحية إلى السمرة تحمل شعرا أسودا لامعا إلى أكتافها إرث جدتها، فهي تشبهها تماما، وعيون مهرة عربية تسكنها من سحر، و غموض

ليل الشرق ما ما تم اقتسامه فيما بعد مع بريق الغرب الذي اعتلاها.. تحمل علي لسانها سبع لغات يتعايشن معا في انسجام،وتجانس منقطع النظير لم يختلط أبدا حرف بالآخر تذكرت كلمات لم تسمعها منذ أن كانت طفلة..بيت الأصول.بيت الأكابر ابتسمت فخرا فهكذا يسمي بيت جدها وهكذا تقول حروف اللغة العربية التي بدت ذابلة علي شفتيها، فأتت مخارجها بنعومة فيروز وهي تغني "ستي يا ستي ستي اشتقت لك يا ستي..ستي شو باقوالك يا ستي "

قطع غنائها صوت قائد الطائرة بكلمات إنجليزية قصيرة، وقوة وهمية يعلن تعرضهم لمطبات هوائية شديدة الخطورة، وضرورة ربط الأحزمة. رنين مكالمة هاتفية قديمة عصفت بها الذكرى كانت المكالمة من أختها تحدثها من مرقصها الفاخر في بلدة ما تخبرها أن غرباء قد وضعوا أيديهم على البيت الذي تسكنه الأشباح، واللصوص، ويباع أثمن ما فيه في مزاد حقير..البيت البيت النزاعات الأمر خطير !! هل مازال هناك أمل لإنقاذ البيت؟

الرحلة طويلة شاقة، و روحها التي سبقتها عارية من زخرف الحياة إلى البيت تطوف حوله.. في حيرة لا تعرف إن كان طواف القدوم أم الوداع.

شريط من الذكريات يعبر أمام عينيها الجامدتين ندما ترقد روحها أمام الباب الكبير المنقوش بتراتيل السلام الذي قضيت دون اقتحامه أرواح. مازال واقفا كانت تترك دراجتها ورائه

تتسلل روحها الفناء الواسع المطرز بشرايين من الفن العثماني،والألوان الأندلسية الفيروزي، والأزرق تزين ساحة الصلاة الواسعة بطراز متنوع بين العباسي، والأموي وخطوط غرزت الآيات القرآنية علي الأسقف، وفوق الاعمدة ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾، ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ﴾؛ أما الساحات فامتزاج موزايكو متنوع من الفن الفرعوني والنقوش القبطية،ونقوش صنعاء القديمة، أحجار بيتار تضفي بهاء وهيبة علي البيت الثقافات المختلفة،.تمتزج مع عطور الأقصى الفواحة إلى جانب أشجار الزيتون والأمان والخوف تزين الحدائق الواسعة.كم كان رائعا بيت جدي.كم كان مهيبا قويا عطوفا. مازالت قبلته الرائعة، وأحضان حوائطه نبع القوة.. في المكتبة الكبيرة التي تسكنها روح جدها لم يكن يفارقها كثيرا، وأعاد إليها الحياة مرات، ومرات رغم سرقتها

..سقطت روحها مغشيا عليها لفترة فلقد أيقنت انه لم يعد مما تذكر شيئا..أكوام من القمامة ترتفع؛ لتخفي نقوش الجدران.. بيع كل شيء بدراهم معدودة..أغصان جافة كأسلاك شائكة علي أجساد زهور القرنفل، والياسمين القتلى في الساحات..تبدد الأمل الذي ازدهر منذ فترة يهزها بقوة هل سأستطيع استعادة البيت و ترميمه.

كانت يد المضيفة تهزها بقوة؛ لتعطيها كوبا من الماء وقد أزعجها الإرهاق، والضعف الشديد الذي يبدو علي السيدة ذات

الوجه الخريفي والتي تتحدث طوال الوقت إلى نفسها عن البيت.. هل أنت بخير؟

سألتها المضيفة

نعم..كنت فقط في غفلة طويلة

والآن علي أن أكمل الطواف.

سحبت البوم صور عتيق من حقيبتها وأخرجت بعض القصاصات والجرائد الصفراء..كانت صور البيت وقد بهتت ألوانه صامدا يتحدى نكران الأهل وغفلة اللاهين يقطع اللصوص من جسده شيئا فشيئا.. وقد قطعوه إلى غرف صغيرة بأسلاك لا يجترئ أحد علي عبورها.. منعت الأسلاك روحها من أن تعبر إلى غرفة والدتها

أما الصورة الأخيرة كانت أشد قسوة كسكين مسموم طعن الأمل في صدر روحها الهائمة طوافا حول البيت.. كانت حوائط مهدمة تبول عليها الكلاب مع اللصوص الراقصة بينما تحلق فوقها طيور جارحة؛ لالتقاط بقايا جثث هامدة تسعى

غلاف أسود من الندم يلف عقلها في دوامات.تغرق،ثم تفيق فلا الموت، ولا الحياة وقد

أبت الذكرى المغولية إلا أن تلطمها بالمشهد الأخير للجد، وهو يخرج ملفوفا بعابئته البيضاء التي يخصصها للصلاة محمولا علي الأعناق،تودعه عيون ماكرة تقهقه بالبكاء انتحبت

كما لو كانت ترى الصورة لأول مرة.. روحها تسكب قصائد الدمع،والرثاء حول البيت

وجهها يتغير إلى فراغ،وعيون بيضاء تشبه الموت. نظرت إلى ساعتها؛لترى كم تبقى من الزمن؟ كانت ساعة يدها متوقفة خارج الزمان منذ أن أهدتها لها والدتها في حفل حصولها على الدكتوراه في التاريخ،والحضارة لم تتوقف يوما. صنعتها يد خبير وطعمتها بفصوص صغيرة من الذهب الأبيض، ولها زجاج أخضر من الزمرد العتيق.. إلا أنها تعمدت تجاهل دقاتها المنهكة وتحذيراتها بالتوقف

درجة الحرارة علي الطائرة تلهب الوجوه عطشا، وعرقا يتناثر..أزيز قاتل كطنين آلاف الدبابير يثقب الأذان

نقيق ضفادع سامة..عيون فارغة إلا من الاشياء موجات من الذكرى..طعنات من ندم تدق عظامها. وعود تهديدات قهقهتا خبيثة. أصوات مختلطة ميزت منها صوت ضعيف لقائد الطائرة، يستغيث معلنا ضياع الطائرة التي مالت بشكل حاد وسط المجرات.

***

ذكريات الأشجار العاشقة

ذاكرة فارغة لخريف ما قبل الموت

بينما أصفرت الأغصان تحت هجمات لون برتقالي طاغيا علي قلب أخضر مائي تغير كل شيء !!

لم يعد لون السماء فيروزي ازرق بل غطاه ساتر ضبابي اختبأت وراءه أشعة الشمس في ضياء خافت انعكس عليه وجه القلب القاسي، نعم قاسي..ليكن قاسيا

ليتهياء لما قبل الموت !!

ليكن قاسيا..ليتحمل آلام الموت الضاحكة علي أطراف الشتاء القريب.

في لحظات آخر الجمال لنتوقف، فالضباب لا يفصح ابدا عن شيء.

فلتتوقف الأرواح السابحة بين الأشجار العتيقة والطفولة عن الدوران في مدارات الغربة ولتسلم الروح الي الجنة عند أول خيوط الفجر..فالأشجار لن تستطيع الطيران..

الأشجار لا تستطيع الطيران

وعما قريب ستقف بعريها وعوراتها تحت جليد الشتاء متحدي ما قبل الموت وحيدة ترقب فتات روحها أوراق متناثرة هنا وهناك تحاول الطيران فلا تستطيع

لتموت عاجزة تحت أقدام رياح فارغة الذكريات..

فى لحظات ما قبل الموت تهاجر الذكري بعيد وتبقي الايام فاقدة للصور، صفحات بلا موسيقي،بلا ألوان بلا قلب يعزف الأمل.

بلا الشتاء !

لا يعرف ذكريات

قريبا سيمحى ذاكرة الأشجار من جديد،، لتصبح مجرد ذكريات،ذكريات ما قبل الموت ذكريات زمن بعيد.

قريبا سترتدي الأشجار ثياب القسوة..لتسلم الروح الي خريف جديد بلا ذاكرة.

عبير السيد

***

الركن المظلم من القلب

هناك فى الجانب المظلم من القلب، يتلعثم الفكر تتوقف الكلمات كثيرًا ما فشلت محاولاته فى الدخول.

يرفض عقله بشدة أن يقترب من هذا الثقب العميق هش الأبواب.

حدثته نفسه: هل ما زالت تسكن هناك؟

قبل أن يفكر فى الرد، كانت نظرات تكسوه بالصمت.

تشبه سكون الليل الفارغ من أى شيء إلا نجمة واحدة !

نعم أجابت! ما زلت أسكن هنا رغم برودة الأركان، رغم صعقات الوحدة القاتله، نعم ما زلت أسكن هنا رغم تجمع الألم تجمع السحب السوداء فى صحراء قاحلة لن أرحل.

طَرَقَ بيده على سطح قلبه الذى فتح أمامه: لكنك رحلتى من سنوات.

لم أرحل، أتشبث بمكاني، وبوشم حديدى أَسُدُّ الجراح، وأغلق الثقوب فى الجدران المهدمة، النازفة من فى شراييناك الممزقة.

هنا ولدت، وهنا سأموت، هنا تسكن روحي، هنا تهدأ أناملى الباكية حروفًا.

الان!! وقد سكنت أخرى فى الجانب الآخر من القلب، ألا ترين؟ سألها

نعم، أعرف أن الجانب الآخر تسكنه الأخرى، لكن الأبواب مفتحة، والغرف خالية يسكنها وهم بلا أسرار، بلا كلمات الحب تنثر بذورها هنا وهناك، ولا براعم الورد تنثر عبيرها. قريبًا تخرج هى الأخرى، بل هى خرجت منذ زمن.

وضع رأسه بين ذراعيه، محدثًا روحه! هى الحقيقة.

سحبته طاقة هائلة وقوة خفية إلى هناك، دفع الباب ببطء تسلل فى أعماقى أكثر وأكثر، رآها وجهًا لوجه، روحى ترتدى ثياب العرس، ما زالت تسكن فى الجانب المغلق المظلم الحزين من قلبه، لا بل تملكه طاقة نور عميقة أضاءت الأركان والزوايا.

اتسعت الغرف والشرايين، أسرع يركض ويركض، أمسك بالقلم ليكتب خبر عودتها، نزع عنها رائحة الموت أخذها بعيدًا عن الركن المظلم من القلب فاتحًا كل الأبواب للنور.

***

نبذة عن الكاتبة

عبير السيد

- خريجة الآداب والتربية قسم اللغة الإنجليزية عام ١٩٩٢ وفي نفس العام غادرت إلى إيطاليا.
- مواليد الشرقية عام ١٩٧٠.
- مصرية إيطالية.
- دراسات في علم التربية للأطفال من ٠ إلى ٦ سنوات مركز بيجاسو فلورنس.
- دراسات بكلية اللغات والألسن والآداب والثقافات الخارجية (الأدب الإيطالي والإنجليزي والعربي) جامعة فلورنس.
- حاصلة على التميز في علم إدارة الصراعات والتربية العامة وثقافة السلام بلقب: مربي متخصص كلية التربية جامعة فلورنس.
- كورس عالٍ للمعلومات بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية والقانون الدولي وثقافة بناء المواطنة جامعة فلورنس.
- كورس الكتابة الإبداعية بجامعة فلورنس مركز الاتنيو.
- عملت وسيطة ثقافية للمهاجرين (مترجمة) بمكتب العمل فلورنس.

- مدرس لغة عربية في العديد من المراكز الخاصة مركز جورجو لابيرا، حاليًا مركز لوريتا للسياحة واللغات. *Loretta Langues service*
- *13 Viale Lavagnini*
- *info@languesservices.com*
- العمل الأول مجموعة قصصية للأطفال باللغة الإيطالية ستنشر قريبًا في إيطاليا رسوم الأستاذة سيلفيا مريداني.
- ترجمة مجموعة قصصية للأطفال «هند تصنع الحكايات» باللغة الإيطالية للكاتبة والشاعرة (عفت بركات) بعنوان: *"LE MERAVIGLIOSE FAVOLE DI HEND" in collaborazione con Akram Omar e Alessandro Lazzaro*. تحت الطبع قريبًا في مصر.
- المجموعة القصصية (الهروب من جنة آدم) وبها العمل الفائز بجائزة ملتقى المعرفة للنشر والتوزيع بمصر ضمن مجموعة (لحظات قبل موتها).
- متطوعة في كثير من الجمعيات الاجتماعية والثقافية ومراكز الاستماع للمرأة المهاجرة مثل جمعية نوذاوتراس جمعية الثقافة والإبداع، جمعية نساء من أجل السلام، جمعية الوفاق للعرب والإيطاليين، جمعية الشروق لتعليم اللغة العربية.
- عضو في الجالية الإسلامية والمصرية بمدينة فلورنس.

للتواصل *abirelsayed@hotmail.it*

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
إهداء	٣
سور الياسمين	٥
صباح الورد	٩
سيدة العشب المنثور	١٣
بيت الأصول	١٧
الإعلان	٢٣
خواطر أنثى مهاجرة	٢٧
زغاريد البحر	٢٩
الطفلة التي ولدت بحلم الحياة	٣٣
عزف الشيكالا	٣٥
غيبوبة الميلاد	٣٩
تذكرة عودة	٤٣
بائعة المرايا	٤٥

الموضوع	رقم الصفحة
الموت خارج الإطار	٤٧
السيدة ذات الوجه الخريفي	٥١
ذكريات الأشجار العاشقة	٥٧
الركن المظلم من القلب	٥٩

* * *